

# أسباب الصبر عن المعاصي

منتقاة من مؤلفات

العلامة الإمام شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هجرية

رحمة الله تعالى

**فخير الدنيا والآخرة بحنافيه في طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحنافيه في معصيته، وفي بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى: (من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني فعُسد بمعصيتي؟) [أخرجه الطبري في تفسيره: 1667]**

**السبب الثامن: قِصْرُ الأمل، وعلمه بسرعة انتقاله،** وأنه كمسافر دخل قرية وهو مُرمع على الخروج منها، أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها. فهو لعلمه بقله مقامه، وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حملة ويضره ولا ينفعه، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته، فليس للقلب أنفع من قصر الأمل ولا أضر من التسويف وطول الأمل.

**السبب التاسع: مجانية الفضول** في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس، فإن قوة الداعي إلى المعاصي إنما تنشأ من هذه الفضلات، فإنها تطلب لها مصرفاً، فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام. ومن أعظم الأشياء ضرراً على العبد **بطالته وفراغه**، فإن النفس لا تقعد فارغة، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد.

**السبب العاشر: وهو الجامع لهذه الأسباب كلها: ثبات شجرة الإيمان في القلب،** فصبر العبد عن المعاصي إنما هو بحسب قوة إيمانه، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله وياشر قلبه الإيمان بالثواب والعقاب والجنة والنار، وامتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم.

ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط، فإذا قوي سراج الإيمان في القلب، وأضاءت جهاته كلها به، وأشرق نوره في أرجائه، سرى ذلك النور إلى الأعضاء، وانبعث إليها، فأسرعت الإجابة لداعي الإيمان، وانقادت له طائفة مذلة غير متناقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن إليه إلى محل كرامته. فهو كل وقت يترقب داعيه، ويتأهب لموافاته. والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

من كتاب: طريق الهجرتين و باب السعادتين  
للإمام ابن قيم الجوزية، رحمه الله تعالى (588-598)

قال بعض السلف: (إن من ثواب الحسنة الحسنة بعلمها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعلمها)، **ومنها:** علمه بضوات ما هو أحب إليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها، فإنه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات في الدنيا ولذة ما في الآخرة. كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾** [الأحاف: 20]، **فالؤمن لا يذهب طبيباته في الدنيا، بل لا بد أن يترك بعض طبيباته للآخرة.** وأما الكافر فلائذ لا يؤمن بالآخرة، فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطبيباته في الدنيا،

**ومنها:** علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجنات، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته، **ومنها:** علمه بأن عمله هو وليه في قبره وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه، **ومنها:** علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصدق إلى الله به، فيحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها، وأعمال الفجور تهوى به وتجذبها إلى الهاوية وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلى حيث تستقر به، قال الله تعالى: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر: 10]، وقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾** [الأعراف: 40]، فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت إلى الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتى وصلت إليه تعالى وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها في عليين، **ومنها:** خروجه من حصن الله الذي لا ضيعة على من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلى حيث يصير نهياً للصوص وقطاع الطريق.

فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلى خربة موحشة هي مأوى اللصوص وقطاع الطريق فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟ **ومنها:** أنه بالمعصية قد تعرض لمُحَقِّ بركته في كل شيء من أمر دنياه وآخرته فإن الطاعة تجلب للعبد بركات كل شيء، والمعصية تمحق منه كل بركة. وبالجملة فأثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وأثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علماً.

## الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة

**أحدها:** علمُ العبد بِقبحها وِردالتها وِدَاعَتها، وأنَّ الله إنَّما حرَّمها ونهى عنها صيانةً لعبده وحمايةً عن الدنايا والرذائل، كما يحمي الوالدُ الشفيق ولده عمًا يضره. وهذا السبب يحمل العاقل على تركها، ولو لم يعلق عليها وعيدٌ بالعذاب.

**السبب الثاني:** الحياءُ من الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ العبد متى علم بنظره إليه ومقامه عليه وأنَّه برأى منه وسمع، وكان حياً حياً، استحيا من ربه أن يتعرَّض لمساخطه.

**السبب الثالث:** مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك، فإن الذنوب تُزيلُ النعمَ ولا بد، فما أذنبَ عبدٌ ذنباً إلا زالت عنه نعمةٌ من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثله، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى يُسلب النعمَ كلها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وأعظم النعم الإيمان، وذنوب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاج النهية يزيلها ويسلبها.

وقال بعض السلف: (أذنبت ذنباً فحرمت قيام الليل سنة).  
وقال آخر: (أذنبت ذنباً فحرمت فهم القرآن). وفي هذا قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها  
وبالجملة فإن المعاصي نارُ النعم تاكلها كما تاكل النار الحطب، عياداً بالله من زوال نعمته وتحول عاقبته.

**السبب الرابع:** خوف الله وخشيته عقابه. وهذا إنَّما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وكتابته وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]،

وقال بعض السلف: (كفى بخشية الله علماً، وبالإغترار بالله جهلاً).

**السبب الخامس:** محبة الله سبحانه، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفتة ومعاصيه. فإنَّ المُحبَّ لمن يُحبُّ مطيعٌ، وكلِّما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاهُ للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها. وفُرقَ بين مَنْ يحمِّله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمِّله على ذلك حُبُّه لسيده.

وفي هذا قال عمر: (نعم العبد صهييب، لو لم يخف الله لم يعصه) [لا أصل له، الضعيف: 1006].  
يعنى أنه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته. فالمحب الصادق عليه رقيبٌ من محبوبه يرضى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهودُ هذا الرقيب ودوامه.

**وهنا لطيفة يجب التنبيه لها،** وهي أنَّ المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكُّر واشتياق. ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها، ويفتس قلبه فيرى فيه نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه. وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

**السبب السادس:** شرف النفس وزكاؤها وفضلها وانفتها وحميئتها أن تختار الأسباب التي تحطها وتضع قدرها، وتخفض منزلتها وتُحقرها، وتسوي بينها وبين السفلة.

**السبب السابع:** قوة العلم بسوء عاقبة المعصية، وقبح أثرها والضرر الناشئ منها: من سواد الوجه، وظلمة القلب، وضيقه وغمه، وحزنه وألمه، وانحصاره، وشدة قلقه واضطرابه، وتمزق شمله، وضعفه عن مقاومة عدوه، وتعريه من زينته والحيرة في أمره وتخلي ولبه وناصره عنه، وتولي عدوه المبين له، وتواري العلم الذي كان مستعداً له عنه، ونسيان ما كان حاصلًا له أو ضعفه ولا بد، ومرضه الذي إذا استحكمت به فهو الموت ولا بد، فإن الذنوب تميت القلوب،

ومنها: ذل بعد عزة،

ومنها: أن يصير أسيراً في يد أعدائه بعد أن كان ملكاً متصرفاً يخافه أعداؤه،  
ومنها: أن يضع تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج، فلا رعيته تطيعه إذا أمرها، ولا ينفذ في غيرها،

ومنها: زوال أمنه وتبدله به مخافة، فأخوف الناس أشدهم إساءة،

ومنها: زوال الأُنس والاستبدال به وحشة، وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة،

ومنها: زوال الرضى واستبداله بالسخط،

ومنها: زوال الطمأنينة بالله والسكون إليه والإيواء عنده واستبدال الطرد والبعد منه،  
ومنها: وقوعه في بئر الحسرات، فلا يزال في حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه إلى نظيرها إن لم يقض منها وطراً، أو إلى غيرها إن قضى وطره منها، وما

يعجز عنه من ذلك أضعاف أضعاف ما يقدر عليه، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه.

فيها نارا قد غُذِب بها القلب في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة،  
ومنها: فقره بعد غناه فإنه كان غنياً بما معه من رأس مال الإيمان وهو يتجر به ويربح الأرباح الكثيرة، فإذا سلب رأس ماله أصبح فقيراً معدماً، فيما أن يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير إلا فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله،

ومنها: نقصان رزقه، فإن العبد يحرم الرزق بالذنوب يصيبه،

ومنها: ضعف بدنه،

ومنها: زوال المهابة والحلاوة التي ألبسها بالطاعة، فتبدل بها مهانة وحقارة،

ومنها: حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس،

ومنها: ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأعلاها، وهو الوقت الذي لا عوض منه، ولا يعود إليه أبداً،

ومنها: طمع عدوه فيه وظفره به، فإنه إذا رآه متقاداً له، مستجيباً لما يأمره به، اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دن مولاه الحق،

ومنها: الطبع والرین على قلبه، فإن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن أذنب ذنباً آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلق قلبه، فذلك هو الران، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]

ومنها: أنه يحرم حلاوة الطاعة، فإذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الإيمان والعقل والرغبة في الآخرة، فإن الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد.

ومنها: أنها تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة، فإن القلب لا يزال مشتتاً مضيقاً حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة، فإذا نزل فيها أقبلت إليه وهود التوفيق والعناية من كل جهة، واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده، وما لم يترحل إلى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة.

ومنها: إعراض الله وملائكته وعباده عنه، فإن العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه إليه،

ومنها: أن الذنب يستدعي ذنباً آخر، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثاً، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعاً، وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته.